واردات الأحوال:

تتداخل مع مقامات السلوك عند السالك طريق الصوفية أحوال عديدة، وبين المقامات والأحوال تشابه مما أدى إلى الخلط بينهما عند مشايخ الصوفية، فقد يتراءى للبعض منهم الحال مقامًا بينما البعض الآخر يرى المقام حالاً.

ويقول السهروردي: "وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما"[١].

وقد سبق وأن فرقنا بين الحال والمقام: فالحال شعور مؤقت يزول سريعًا، والمقام يبقى صاحبه متحقق به على الدوام، ولذلك سُمي مقامًا، والحال هبة من الله دون تعمد أو كسب أو إرادة، والمقام يتعمد الصوفي التحقق به ويسعى إلى ذلك، وإذا دام الحال صار مقامًا.

فإذا تحقق السالك طريق الصوفية بالمقامات وبدل صفات نفسه الذميمة بصفات حميدة، وراض نفسه بالرياضات العملية، أنعم الله عليه بواردات الأحوال التي هي ثمرة للمجاهدات والرياضات الروحية والعملية.

والأحوال حالات وجدانية خاصة وتجربة شخصية، وهي مظهر لما يتحقق به السالك من التوافق النفسي والسعادة ورسوخ قدمه في الطريق، وهي خبرة ذاتية وجدانية خاصة لا يدرك كنهها إلا من يعيشها ويخوض التجربة.

وهي سريعة الزوال غير أنها عميقة الأثر في نفس المتحقق بها؛ لأنها تستولي على كل مشاعره وجوارحه.

وتفيض عليه من النور الباطني الذاتي the subjective light ما يستغرقه فيحدث له إشراقًا يفقده إحساسه بذاته ويحيه مع الله.

وتتنوع الأحوال بتنوع الواردات التي ترد على قلب السالك من المعرفة الوهبية والأسرار الإلهية، فبعض الواردات توجب الأنس، وبعضها يوجب القبض، وبعضها يوجب البسط، وبعضها يوجب القرب، وبعضها يوجب اليقين، وهكذا، فالأحوال نتاج الواردات.

---

(١) السهروردي : عوارف المعارف ص ٣٦٠.

الوارد الصحيح هو الذي يكون مطابقًا للشرع، والعكس صحيح، فإذا ورد على قلب السالك واردًا مخالفًا للشرع كان فاسدًا.

وتبقى بعد الواردات علامات وعوارض يصحبها طمأنينة واجتماع همة، وإذا تحقق السالك من صدق حاله وصدق الواردات التي ترد على قلبه وشعر بها فعليه أن يحمد ربه ولا يغتر بذلك، ولا يتظاهر به أمام الناس؛ لأن من طبيعة أخلاق الصوفية ستر حالهم.

فإذا التزم السالك بآداب الواردات صحت له ثمرتها من الأحوال العديدة التي ترد عليه من عند الله، كما سنتبين ذلك من عرضنا لبعض أحوال الصوفية.

١- حال القرب:

حينما يُقبل السالك على ربه بأنواع العبادات والطاعات والمجاهدات العملية والروحية والأعمال الصالحة، ويتحقق بمقامات السلوك الصوفي يشعر بشدة قربه من الله عز وجل، وهو شعور يورده الله على قلب السالك الواصل إلى حضرته.

يقول الشعراني في حال القرب: " إن شدة قرب العبد من حضرة ربه عز وجل إنما تكون برؤيته للأشياء كلها لله تعالى، ليس للعبد منها سوى نسبة التكليف"(١).

وأخص ما يميز حال القرب أن يشعر السالك بأن الله سبحانه وتعالى ملك عليه قلبه، وأنه يشهده بنور الإيمان الذي يتجلى في قلبه، قال تعالى في الحديث القدسي: " لم تسعني السماوات والأرض ووسعني قلب عبدي المؤمن ".

وحال القرب مقترن بمقام الحب ومقام التوكل، فكلما كان السالك محبًا لله، ومتوكل عليه، زاده هذا قربًا من الله، وإذا دام مقام القرب تحول من حال إلى مقام، وهكذا جميع الأحوال.

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن والأخلاق ج٢ ص ٧٤

٢- حال اليقين:

واليقين حال من الأحوال التي ينعم الله بها على قلب السالك بنور اليقين دون شك أو ظن أن تردد، بل يشعر صاحبه بطمأنينة كاملة، وتأكد ويقين يرسخ في القلب، وهو إشارة إلى سكون المعرفة الذوقية بالله في القلب.

ويقول الشعراني : " إن المعرفة والعلم الذي يسكن في قلب المتحقق بحال اليقين ويستقر فيه ، إذا أضيف إلى العقل والنفس يقال له: (علم اليقين)، وإذا أضيف إلى الروح يقال له: (عين اليقين)، وإذا أضيف إلى القلب يقال له: (حق اليقين)، وإذا أضيف إلى السر الوجودي يقال له: (حقيقة حق اليقين)، وهذا الأخير لا يكون إلا للكُمَّل من الرجال"(١).

وإذا تحقق السالك بحال اليقين لا يصح سلبه بعد ذلك، فإذا وهب الله لعبده المعرفة الذوقية به فإنه لا يسلبها منه، فالمعرفة اليقينية بالله لا تُسلب، وإنما قد تُسلب الأحوال، ويقول الشعراني في ذلك: " لا يصح سلب اليقين ... وقولهم: فلان سُلِب، إنما يراد به سلب الأحوال "(٢).

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: الأجوبة المرضية من أئمة الفقهاء والصوفية ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

٢- حال القبض والبسط:

القبض والبسط حالان شريفان من الأحوال التي ترد على السالك في طريقه إلى الله، وهما يردا على القلب متعاقبان، ففي حال القبض يشعر السالك بالقلق والحزن والألم، أما في البسط فيشعر بالفرح والبشر والرضا والطمأنينة.

وشعور السالك بالقبض والبسط يكون من الله تعالى لا دخل له في ذلك، فأحيانًا ينقبض قلب السالك، وأحيانًا أخرى يشعر بالسعادة والفرج والانبساط.

ويكون القبض إذا قَصّر السالك في مجاهدة نفسه، أو أقبل على فعل لم يرض عنه، فهذا يورثه شعور بالقبض.

وأما إذا تحقق السالك بالكمال الأخلاقي، وتأكد له سيطرته التامة على نفسه، ونجح في كبح جماحها وقيادتها غلى الخير والطاعة والأخلاق الحميدة شعر بالبسط والانشراح.

يقول السهروردي: القبض لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفاتها، ولو تأدبت وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان تارة أخرى ما وجد صاحب القبض القبض ما دام روحه وأنسه، رعاية الاعتدال الذي يسد باب القبض لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد:٢٣][١].

وعلى السالك الذي يشعر بالقبض أن يلتزم بآداب الصوفية، وهي مراعاة تجنب الضجر، وتجنب ترك الآداب في وقت البسط أيضًا مع مراعاة الاعتدال[٢].

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف ص ٤٩٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

٤- حال الفناء والبقاء:

حال الفناء من الأحوال التي ترد على الصوفية الكمل الذين تحققوا بالكمال الأخلاقي.

والفناء يعني أن يفقد السالك شعوره بما حوله وبنفسه ويبقى بالله، ويكون الفناء من شدة الوجد بعد الذكر أو السماع.

ويحدث دون تعمد، ويكون في لحظة خاطفة يلتقي فيها قلب الصوفي بربه فيفيض عليه من المعرفة اللدنية والعلم الوهبي الذوقي.

وقد اختلفت آراء الصوفية في حال الفناء الذي يتلقى فيه الصوفي المعرفة القلبية من الله، هل يكون الصوفي فيه غاشيًا عن إحساسه فاقدًا لوعيه بما حوله وبنفسه، أم يكون في تمام وعيه وحسه؟

يقول الشعراني وابن عطاء الله السكندري وغيرهم من الصوفية الذين اتفقوا معهم في الرأي: "إن الفناء حالة وجدانية لا يشعر فيها السالك بشيء من جوارحه الظاهرة، ولا الأشياء الخارجية عنه، ولا العوارض الباطنة فيه[١]. ويبقى بربه ويتعلق قلبه بالله وحده، فيفيض عليه المعرفة القلبية".

ويختلف في ذلك السهروردي الذي يقول عن السالك المتحقق بحال الفناء: "ليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسهم، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق"[٢].

والسالك طريق الصوفية يتحقق بحال الفناء في حال الذكر أو السماع عندما يركز كل اهتمامه وتفكيره في الله، فلا يدرك ما سواه، وهنا يسكت عن الذكر أو يغيب عن السماع، وتحدث له غيبة عن الأكوان، ويبقى مع الله الذي يفيض على قلبه المعرفة الذوقية.

---

(١) انظر: الشعراني: لطائف المنن ج١ ص٧٠، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ص ٣٥٨.

(٢) السهروردي: عوارض المعارف ص ٣٦٣.

والفناء هو مزلة أقدام رجال التصوف؛ إذ أن بعضهم وهو في حال الفناء ينطق ببعض العبارات الخارجة عن ظاهر الشرع.

من أمثلة ذلك أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ) الذي عَبّر عن فنائه بشطحات جريئة غامضة المعنى خارجة على ظاهر الشرع فقال: "لا إله إلا أنا فاعبدوني، سبحاني ما أعظم شاني"[(١)].

وله نظرية في اتحاد العبد بالرب، ولا داع لذكر المزيد من العبارات والشطحات التي ذكرها، نستعيذ بالله من ذلك.

والحسين بن منصور الحلاج الفارسي (٢٤٤ هـ- ٣٠٩هـ) الذي حُكِمَ عليه بالإعدام لنطقه بالعبارة المشهورة: "أنا الحق"، وكان له نظرية في الاتحاد بالذات الإلهية، واتهم بالزندقة والكفر.

والحلاج الذي قال: "نحن روحان حللنا بدنا"، وكتب الشعر في كيفية اتحاده بالله وامتزاج روحه بروح الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وله نظرية في الحقيقة المحمدية أفرد لها مصنفًا خاصًا هو "طاسين السراج"، وكلها فلسفات خارجة عن الإسلام وتعاليمه.

محيي الدين ابن عربي[(٢)] (ت : ٦٣٨) ومذهبه في وحدة الوجود.

وابن الفارض (٥٧٦هـ- ٦٣٢هـ) الذي اتخذ من الذات الإلهية موضوعًا لحبه، وعبر عن ذلك في شعره، وانتهى إلى الاتحاد بمحبوبته وهي الذات الإلهية.

وعبد الحق بن سبعين (٦١٣هـ- ٦٦٧هـ...)، والسهروردي المقتول، وعفيف الدين التلمساني، وصدر الدين القوني، وغيرهم ممن كانت لهم شطحات وعبارات وفلسفات بعيدة عن الإسلام، ومخالفة لروحه، وكانت هذه المذاهب الغريبة سببًا في كره التصوف والحملة عليه وعلى أهله، وهذا ما سنتعرض له بعد.

---

(١) انظر القشيري: الرسالة من ص ١٤-٢٣.

(٢) انظر كتاب محيي الدين بن عربي الفتوحات المكية.

وإذا عدنا للحديث عن حال البقاء فهو أرفع المراتب وأرقى الأحوال، وهو آخر مراحل الذكر، وهو يأتي بعد الفناء، وكثير من الصوفية يفضلون حال البقاء مع الله على حال الفناء؛ لأن مقام الفناء أشبه بالعدم.

يقول ابن عطاء الله عن حال الفناء والبقاء: "الفناء يوجب عذرهم ، البقاء يوجب نصرهم، والفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يوجب حضورهم مع الله في كل شيء، فلا ينقطعون عنه في شيء، والفناء يميتهم، والبقاء يحييهم"[1].

والصوفي الذي وصل إلى الكمال الأخلاقي وبلغ من نقاء السريرة وطهارة القلب وقوة الإيمان وحميد الأخلاق مبلغه .. ينعم الله عليه بالمعرفة الذوقية.

---

(١) أبو الوفا التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ص ٤٥ ص ٢.

المعرفة القلبية لله:

إن معرفة القلب مفطورة في قلب الإنسان، فقد أطلعه الله على وجوده وهو في عالم الذر أو عالم الأمر، حيث خلق الله الأرواح وأشهدها على وجوده، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

تلك المعرفة الفطرية بالله قد طمسها حجاب البدن، ولذلك بعث الله بالأنبياء والرسل ليذكروا الإنسان بربه ويدعونه إلى عبادته وتوحيده.

والصوفية مع اعترافهم بأهمية الحس والعقل في معرفة الله، فإنهم يرون أن المعرفة القلبية لله هي أكثرها يقينًا وأبعدها عن الشك.

فالحس يدرك ما هو محسوس والعقل يدرك الأمور العقلية وما فوق الحس والعقل لا يدرك إلا بالقلب(١).

وحقيقة المعرفة بالله هي : الإيمان به سبحانه وتعالى.

يقول الغزالي في المعرفة بالله أو الإيمان به تعالى: إن لليقين بوجود الله والإيمان به ومعرفته ثلاث مراتب:

١- إيمان العوام المستند إلى الخير، وهؤلاء العوام يصدقون ما يخبرهم به أهل الثقة، كأن يقال لهم : إن فلانا في الدار فيؤمنون بما يسمعون.

٢- إيمان العلماء الذين يصلون إليه بالعقل عن طريق الاستنباط، كأن يسمعوا فلانا يتكلم فيستنبطون أنه بالدار.

٣- إيمان العارفين ويقينهم الذي يشهدون فيه الحق دون حاجة من حس أو عقل ، ومثلهم في ذلك كمثل من دخل الدار ووجد فيها رجلاً أو امرأة بعينه، فمعرفتهم يقينية لا يطرق إليها شك.

والعارفون بالله معرفة قلبية هم أولياء الله الصالحين، الذين ربوا أنفسهم بالمجاهدات والرياضات وتحققوا بالكمال الأخلاقي، وتهيأت قلوبهم للتلقي عن الله،

---

(١) انظر :د. كوكب عامر، معرفة الله والطريق إليها، بحث نشر في حولية كلية البنات، العدد ١٢.

والعارفون الواصلون إلى هذه المرتبة من الإيمان واليقين هم أحباب الله الذي يلقي المعرفة به في قلوبهم دون واسطة من حس أو عقل، فتكون معرفة قلبية من الله، ولله، وبالله.

ففي نهاية الطريق الصوفي يزول عن القلب كل حجاب وتنجلي البصيرة وتنقدح في القلب معرفة الله معرفة نورانية ذوقية مبنية على أساس من الذوق الروحي والكشف الإلهي، وهذه المعرفة تكون لخواص أولياء الله[١].

ويترتب على هذه المعرفة القلبية، والتي هي الغاية العظمى من التصوف، نوع من السعادة التي لا تدانيها سعادة.

ويقول الغزالي في ذلك : " فلذة العين في مشاهدة الصور الحسنة، ولذة الأذن في سماع الأصوات الرخيمة، وكذلك سائر الجوارح، لكل منها لذة يحدثها في نفس المدرك ما يمتاز به الشيء المدرك من صفة محببة، أما القلب وهو طريق المعرفة اليقينية فإن لذته تحصل عن معرفة الله، وهي المعرفة التي خُلِقَ القلب لها واختص بها من دون الجوارح"[٢].

---

(١) انظر: الغزالي: المنقذ من الظلال ص ١٢١-١٣١ وانظر له أيضًا: كيمياء السعادة، والرسالة اللدنية.

(٢) الغزالي: كيمياء السعادة ص ١٨-١٩ طبع مصر سنة ١٣٤٣ هـ.